وباء كورونا بين تمثّلات الخطر ومخاطر الحداثة

Corona Pandemic between The Representations of Danger and Risks of Modernity

La pandémie du Corona entre les représentations du danger et les risques de la modernité

كريمة بن درّاج[1] *

تاريخ الإرسال: 2023/02/27 تاريخ القبول: 2023/05/04 تاريخ النشر: 2023/06/01

ملخّص:

تدور فكرة هذا التّدخل في أنّنا نعيش في "عالم مُنْفَلِتٍ" على حد تعبير "أنتوني جيدنز"، كإشارة إلى كثرة مخاطر الألفيّة الثّالثة، وأنّه يمكن اِعتبار فيروس "كورونا" أحد المخاطر والتّهديدات الجديدة للحداثة، والّتي لا نراها، لا نسمعها ولا نحسّها، على رأي "أولريخ بيك".

إذن، يشهد الوباء على المكان المركزيّ الّذي يحتلّه الخطر في المجتمعات الحديثة، سواء كاِهتمام اِجتماعيّ أو كنتيجة لتطوّر هذه المجتمعات.

يتعرّض هذا المقال للفرق بين أخطار المجتمعات التّقليديّة ومخاطر المجتمعات الحديثة، كما سيحاول تقديم قراءة سوسيولوجيّة لتمثّلات الخطر، من خلال تناول وباء كورونا كمثال عن آخر ما عاشه العالم من مخاطر الألفيّة الثّالثة.

الكلمات المفتاحيّة: الحداثة؛ التّمثّلات؛ الخطر؛ المخاطر.

Abstract:

The idea of this intervention revolves around the fact that we live in an “Runaway world”, in the words of Anthony Giddens, as a reference to the many dangers of the third millennium, and that the “Coronavirus” can be considered one of the new dangers and threats to modernity that we do not see, hear or feel, according to Ulrich Beck.

Therefore, the epidemic attests to the central place that danger occupies in modern societies, whether as a social concern or as a result of the development of these societies.

This article exposes the difference between the dangers of traditional societies and the risks of modern societies, and will also attempt to provide a sociological reading of the representations of danger by addressing the Corona epidemic as an example of the last dangers the world experienced from the third millennium.

Keywords: Modernity; Representations; Danger; Risks.

Résumé :

L’idée de cette intervention est que nous vivons dans “un monde sans limites”, selon les mots d’Anthony Giddens, en référence aux nombreux risques du troisième millénaire, et que le virus Corona peut être considéré comme l’un des nouveaux risques et menaces pour la modernité que l’on ne voit, n’entend, ni ne ressent, selon Ulrich Beck.

Ainsi, l’épidémie atteste de la place centrale qu’occupe le danger dans les sociétés modernes,

*د/ كريمة بن درّاج

[1]Karima Benderradj, Abdelhamid Mehri University - Constantine 2: Algeria, kbenderradj@gmail.com,

que ce soit comme préoccupation sociale ou comme conséquence de leur développement.

Cet article traite la différence entre les dangers des sociétés traditionnelles et les risques des sociétés modernes, et va essayer de lire sociologiquement les représentations du danger en prenant la pandémie du Corona comme exemple.

Mots clés : Modernité ; Représentations ; Danger ; Risques.

مقدّمة

وُصِفَتْ الحداثة بأنّها نتيجة المجتمع الصّناعيّ العقلانيّ الّذي تغيّرت فيه الحياة الإجتماعيّة بكلّ أبعادها؛ حيث بدأ المجتمع الصّناعيّ بالإندثار، فاتحا المجال لمجتمع جديد، تسوده الفوضى، وتغيب فيه أنماط الحياة المستقرّة، ما جعل دلالة المخاطرة شديدة الآنيّة والأهمّيّة في لغات التّقنيّة والعلوم الطّبيعيّة، وكذا في لغة السّياسة.

وإهتمّ "أنتوني جيدنز" بعلاقة الأفراد بالخطر والمكان الّذي يولونه له في قراراتهم اليوميّة، ورأى أنّ ما يميّز الحداثة هو ظهور "ثقافة الخطر"، ويعني بذلك، أنّ مجتمعنا يحثّ الأفراد الّذين حصلوا على قدر كبير من الإستقلاليّة على تولّي مسؤوليّة حياتهم والتّحكّم فيها، بما في ذلك صحّتهم، وذلك من خلال الحذر من الخطر الموجود بوسطهم، والّذي قد يهدّد رفاه مستقبلهم.

وقضيّة المسؤوليّة الفرديّة في تسيير الأخطار تعود إلى أعمال "فوكو"، وسيطرة المجتمع على الجسد؛ حيث تحاول السّلطات التّحكّم في الأجساد عن بعد، أي بدلا من إستعمال القوّة لحثّ الأفراد على تبنّي السّلوكات المرغوبة، جعلت منهم فاعلين في تنظيم الممارسات الإجتماعيّة، ولهذا، غالبا ما تكون المسؤوليّة الفرديّة في قلب حملات الوقاية الصّحّيّة، للتّأكيد على أنّ الفرد هو المسؤول عن رأسماله الصّحّيّ، وعليه أن يحميه ويحافظ عليه بإتّباعه للسّلوكات الحسنة.

إذن، المطلوب من كلّ واحد منّا في المجتمعات الحديثة أن يكون واعيا بالمخاطر المحيطة، وبمراقبة حياته الخاصّة، أو كما يقول "جيدنز": "بإحتلال المستقبل"، وذلك بالإستناد إلى المعارف المتوفّرة، لكنّ السّؤال الّذي يُطْرَحُ هنا هو: هل يتساوى جميع الأفراد مع هذا المعيار المشَكِّلِ لثقافة الخطر؟ وهي النّقطة الّتي تسعى الأعمال السّوسيولوجيّة لإبرازها، والمتمثّلة في الإختلاف الإجتماعيّ للمواقف في مواجهة الخطر والمستقبل، خاصّة وأنّ تمثّلات الخطر أو سلوكات مجابهته – المتباينة إجتماعيّا كما سبق الذّكر – هي عناصر مهمّة في عمليّة إستشراف الخطر الصّحّيّ.

1- الوباء، من ظاهرة صحّيّة إلى ظاهرة سوسيولوجيّة

لم يكن اِلتقاء السّوسيولوجيا بالمعرفة الطّبّيّة سهلا ومفتوحا بين مرجعيّتيْن مختلفتيْن لإنتاج المعرفة بالمرض والصّحّة والطّبّ، بل يمكن القول أنّ التّدخّل السّوسيولوجيّ لم يكن مقبولا في مجال الطّبّ، ويعود ذلك بالدّرجة الأولى إلى النّظرة الاِكتفائيّة للرّؤية العلميّة والتّقنيّة، واِعتقاد العلوم الطّبّيّة بالاِكتفاء الذّاتيّ.

لكن، مع تطوّر الحياة الاِجتماعيّة للأفراد والمجتمعات، وتداخل العوامل المتعدّدة في نشوء وتغيّر صحّتها ومرضها، ومع بداية اِكتشاف حدود العوامل والمتغيّرات الباثولوجيّة في تفسير حدوث المرض، بدأ الاِنفتاح التّدريجيّ لعلم الطّبّ، وإقدامه على محاولة إدماج بعض العوامل الاِجتماعيّة كمعطيات واقعيّة تساعده على اِستكمال الرّؤية الطّبّيّة حول المرض وتفسيره.

ويرى "ريمون بودون" في كتابه "أبحاث في النّظريّة العامّة في العقلانيّة، العمل الاِجتماعيّ والحسّ المشترَك"، أنّه لا يوجد اِنقطاع بين المعرفة الطّبيعيّة ومعرفة الإنسان، والسّبب هو أنّ الهدف الأساسيّ الّذي ترمي إليه العلوم الإنسانيّة وعلوم الطّبيعة هو تفسير الظّواهر الّتي لا نُدرك أسباب وجودها تلقائيّا (بودون، 2010، صفحة 12).

لذلك، فإنّ هذه الجائحة جعلتنا نقف أمام لحظات تساؤليّة لفهم واِستكشاف أزمة السّوسيولوجيا والواقع المأزوم، فهل هذا الإقصاء للسّوسيولوجيا – كما سبق الذكر – ظلّ حبيس الدّوغمائيّة في إعطاء الأولويّة للعلوم الدّقيقة، واِعتبارها المخلِّص للمجتمع من براثن التّخلّف، والدّفع به لمواكبة الحداثة الكونيّة؟ أم أنّ السّوسيولوجيا – خاصّة عندنا في الجزائر – لازالت في طريق البحث عن ذاتها، ولم تتأسّس حتّى في عموميّاتها كي تتمكّن من الوصول للتّخصّص ضمن حقل المخاطر والأزمات؟

لقد فرض الوباء – الّذي لا تُعْرَفُ نهايته – نوعا من الخوف والتّوجّس واللّايقين، وأَعْجَزَ العلم عن تقديم إجابات، ممّا أدّى إلى التّشكيك في الخطاب العلميّ عموما، وفي مجال الطّبّ على وجه الخصوص؛ حيث اِستطاع الفيروس أن يسائل حتى تخصّصات الطّبّ الجديدة، أو ما يعرف بالطّبّ الاِستشرافيّ (La médecine prédictive)، والّتي تتحدّث عن قدرتها الاِستشرافيّة.

ورغم كون "كورونا" أزمة صحّيّة، عبّأت – ومنذ البدء – العلوم الطّبّيّة، البيولوجيّة والفيروسيّة، إلّا أنّها – ومع تطوّرها وديمومتها في الوقت – صارت تستوقف العلوم الاِجتماعيّة بِرُمَّتِهَا؛ لتبحث في آثار الفيروس على العلاقات الاِجتماعيّة، كيف اِنكفأ المجتمع على نفسه، وكيف اِبتكر آليّات جديدة للتّعبير عن علاقات جديدة اِفتراضيّة للتّواصل، وصارت البيوت والحياة الخاصّة تُصَوَّرُ، ويطّلع عليها الملايين من البشر، في مجتمع يقدّس الحياة الأسريّة وحرصها على سرّيّة علاقاتها.

كما حاولت هذه التّخصّصات أن تبحث في كيفيّة التّعامل مع الأزمة، وفي الحالة النّفسيّة للأفراد، والآثار الإقتصاديّة لها، وأن تُسائل أنثروبولوجيا المجتمعات: لماذا تدرك مجتمعات خطورة الأمر، وتعيش أخرى حالة من الإستخفاف بإجراءات الحجر والوقاية؟ على أمل الوصول إلى ثنائيّة تكامليّة في شرح الفيروس بين الطّبّ وعلوم الإنسان.

2- في مفهوم الخطر والمخاطرة

كانت المخاطر في السّابق عبارة عن أخطار يعيشها أفراد المجتمعات التّقليديّة عموما، تُعْزَى للطّبيعة، الآلهة، الشّياطين والسّحر، ونتائجها محدودة بالزّمان والمكان، الوعي الإجتماعيّ بها ضئيل، ومراقبتها قليلة، لتتطوّر اليوم لسلوكات عابرة للأوطان، مُهدِّدة للمجتمعات، فمصطلح المخاطرة إذن: "هو محاولة لجعل التّأثيرات غير المتوقَّعة لقراراتنا الإجتماعيّة متوقَّعةً ومُرَاقِبَةً غَيْرَ المرَاقَبِ" (Delannoi, 1995, p. 883).

ويرتبط الفرق بين الخطر (Le danger) والمخاطرة (Le risque) بمفهوم التّهديد (La menace)؛ وهو الجانب الدّيناميكيّ لقضايا العصر (السّياسيّة، الإقتصاديّة، البيئيّة ...)، ويتغيّر ويتطوّر مع مرور الوقت، ويأخذ أبعادا متعدّدة لها صفة التّهديم: "فالخطر هو تهديد للأشخاص أو الأشياء الّتي تملك عندهم قيمة، والمخاطرة هي قياس التّهديد مع إحتمال الخسارة المقدَّرة، ويرتبط إحتمال هذه الخسارة بالظّاهرة الّتي تمثّله" (Buendia, 2002, p. 285).

ويُستخدَم مصطلح المخاطر لوصف الظّواهر الطّبيعيّة، والّتي عادة ما تُعتبَر آثارها كارثيّة، وتؤثّر على الهياكل الأساسيّة لنظام معيّن، وتكون نتائجها قاسية بالفعل لصعوبة التّنبّؤ بها، لذا يجب إتّخاذ قرارات عاجلة وحاسمة في نفس الوقت، في حين يُستعمَل مصطلح الأزمات لوصف الحاجة الملحّة للإستجابة، بسبب حادثة معيّنة، أو تغيير بسيط في حقائق معيّنة في كثير من الأحيان، وتشير الأزمات في الغالب إلى الحوادث الّتي هي من صنع الإنسان (خلوفي و شريط، 2020، صفحة 567).

وتُعرَّف المخاطر بصفة عامّة على أنّها سلسلة من الأحداث غير المتوقَّعة، الّتي تُطْلِقُ دوّامة هبوطيّة سريعة، ولها آثار طويلة المدى إذا لم يتمّ التّعامل مع الموقف بسرعة وكفاءة، وتكون مُفاجِئة، وتشكِّل تهديدا للأهداف ذات الأولويّة العالية، وفترتها الزّمنيّة محدودة ومتاحة للإستجابة (خلوفي و شريط، 2020، صفحة 567).

ولا تقتصر المخاطر الكبرى على أيّ حجم أو نوع تنظيميّ؛ فهي تحدث في جميع الدّول دون إستثناء؛ حيث لا تعترف أو تحترم الحدود الوطنيّة، ولا تقتصر على مجال سياسة معيّن، وتكتشف قضايا وتعيد دمجها في تهديدات ضخمة غير متوقَّعة. ولا يمكن وضع المخاطر الكبرى الحديثة في تواريخ محدّدة ببداية ونهاية واضحة (Sonia, Mildred, Scott, & Aura, 2014, p. 81).

وهناك من يعرّف المخاطر الكبرى على أنّها: اِحتماليّة حدوث أمر ما، قد يؤثّر في المسيرة الطّبيعيّة للدّول، والّتي قد تؤثّر في أهدافها، ولمعرفة هذه المخاطر لابدّ من تقييم المخاطر الّتي من خلالها يمكن التّعرّف على الخطر، وقياس درجة خطورته، وتأثيره المستقبليّ، ومن ثمّ إدارته.

وإدارة الخطر هي العمليّة الّتي يتمّ من خلالها التّعامل مع الخطر للتّخفيف من آثاره، وفق السّياسات الّتي تتّبعها الدّولة، والإجراءات الّتي تسبّبت في حدوث هذا الخطر، والّتي أصبحت من أهمّ مؤشّرات الكفاءة والفاعليّة للإدارات، وأحد مقاييس تبنّي آليّات الحوكمة (الحسيني، 2020). وعليه، فإدارة المخاطر الوبائيّة تعني مكافحة واِحتواء المخاطر المحْدِقَةِ بالصّحّة العموميّة.

واِعْتُبِرَ الخطر في المجتمعات التّقليديّة أمرا طبيعيّا، له صفة مباشرة وظاهرة، ويتعلّق موضوع المخاطرة –كاِهتمام عالميّ – بالجانب التّكنولوجيّ والتّقنيّ، والنّظام الاِجتماعيّ، وقد تكون هذه المخاطرة ظاهرة أو خفيّة، مباشرة أو غير مباشرة، تمسّ سلبيّتها الفرد والجماعة.

وفي بداية تسعينيّات القرن الماضي، تحوّلت المخاطر – كمحتوى اِجتماعيّ – (الحوادث التّكنولوجيّة الكبرى، التّلوّث الضّخم، تغيّر المناخ، تكاثر الأوبئة الّتي لا يمكن التّنبّؤ بها: كمرض الإيدز، جنون البقر ... وتصاعد الأصوليّة) إلى مخاطر فرديّة "فردانيّة المخاطر"، تهدّد الفرد في المجالات المختلفة لحياته (صحّيّة، بيئيّة، ثقافيّة ...)، "فقد تسارعت التّغيّرات العلميّة والتّكنولوجيّة، كنتيجة للعولمة في جانب منها، كما أنّ تأثير هذا التّغيّر على حياتنا أصبح مباشرا وعميق الجذور"، كما يقول "أنتوني جيدنز" (جيدنز، 2010، صفحة 95)، ولذلك، فتقدُّم العلوم لا يقلّل بالضّرورة من المخاطر، بل يشدّد على الوعي بها.

3– كورونا من مجتمعات الخطر إلى مجتمعات المخاطرة

تمثّل الحداثة قطيعة فكريّة وأخلاقيّة للمجتمعات التّقليديّة والمعتقدات اللاعقلانيّة، الّتي أسّست لنمط حياة مختلف عن السّابق، في عمق وتوسّع وشمول كلّ المجالات.

وتتمظهر الحداثة الأولى أو البسيطة – حسب أولريخ بيك – في عقلنة الحياة الاِجتماعيّة؛ حيث اِتّجه العالم الغربيّ نحو التّصنيع والتّطوير الاِقتصاديّ، مُعتمِدا على التّوجّه العلميّ في صورته التّقنيّة، كحلّ وحيد وأفضل لرفاهية المجتمعات.

تمثّلت هذه الحداثة في سمات حياتيّة مُعَوْلَمَةٍ، وكانت في بدايتها نمطا "حضاريّا" مقابل آخر تقليديّ، ومسّت جميع نشاطات الحياة الإنسانيّة (دولة حديثة، اِقتصاد حديث، فنّ حديث ...)، وحملت من جهة أخرى أيديولوجيّة التّغيير وفردنة الأخلاق: «عندما كانت مجتمعات ما قبل الحداثة قد أنشأت نوعا من "تجاوز الماضي" حول الدّين – الّذي يشير بِاستمرار إلى أولويّة اللّحظات المؤسِّسة – فإنّ المجتمعات الحديثة قد عكست هذا المنطق إلى "تجاوز المستقبل" – التّحرّر،

حتّى وإن لم يكن مضمونا، فهو على الأقلّ ممكن دائما، وبعد الحداثة هي اللّحظة الّتي لن يكون فيها مزيد من التّعالي» (Jacquemain, 2012, pp. 1-2).

من المعروف أنّ المجتمعات الإنسانيّة تخضع لحتميّة التّحوّل والتّغيّر، سواء كان ذلك لنتيجة محسوبة ضمن مشروع مجتمعيّ قائم، أو لمسبّبات طارئة مفاجئة، تخرج عن السّيطرة الإنسانيّة، كما يحدث اليوم مع "فيروس كورونا"، الّذي أدخل العالم في حالة من اللّاإستقرار واللّاأمن، كرسائل للحداثة ومُنْجَزِهَا الإجتماعيّ.

وأنّ العزل أو الحجر الصّحّيّ هو من شروط محاصرة هذا الفيروس؛ لأنّه يتكاثر في التّجمّعات، ما يعني أنّ الإجتماع الإنسانيّ فشل عندما تحوّل إلى قرية صغيرة، بفضل مُنجَزات الحداثة، الّتي إستطاعت أن تحقّق القرب الحقيقيّ، عبر إنتشار الفضاءات الحضَريّة، وتكاثر المدن، وكذا وسائل النّقل، الّتي قرّبت المسافات، وأعادت ضبط الزّمن والجغرافيا، ليأتيَ اليوم الوباء ويلغي ما هو مُشترك من فضاءات عامّة، كالمقاهي والمطاعم والعروض الثّقافيّة والرّياضيّة؛ لأنّه أصبح مصدرا للخطر، تاركا فقط ما يتماشى وفكرة العزل والإنعزال القسريّ، من خلال الحجر الصّحّيّ، وحظر التّجوال، هادما لفكرة حرّيّة الفرد كأساس جوهريّ للحداثة، وعند هذا التّفصيل بالذّات، تُصاغ بنود التّعاقد الإجتماعيّ بنفس القاعدة الّتي وضعها "جون جاك روسو"؛ أي: التّنازل عن الحرّيّة الطّبيعيّة المطلَقة، مقابل الأمن والإندماج وتحقيق التّوازن، ولكن في هذه المرة لضمان الحياة وعدم الموت (موسى، 2020).

إنّ ما يميّز مجتمعات الحداثة – حسب "أنتوني جيدنز" – هو ظهور "ثقافة الخطر"، ويعني بذلك أنّ مجتمعنا يحثّ الأفراد الّذين حصلوا على قدر كبير من الإستقلاليّة، على تولّي مسؤوليّة حياتهم، والتّحكّم فيها، بما في ذلك صحّتهم، وذلك من خلال الحذر من الخطر الموجود بوسطهم، والّذي قد يهدّد رفاه مستقبلهم، وحتّى يمكنهم اليوم إتّخاذ أحسن القرارات المتعلّقة بمستقبلهم، سواء تعلّق ذلك بإختياراتهم المرتبطة بنمط عيشهم، أو بما يستهلكون، توضع تحت تصرّفهم معارف وخبرات غالبا ما تكون كمّيّة (Watel & Malclès, 2020).

ويؤكّد عالم الإجتماع الألمانيّ "أولريخ بيك" (Ulrich Beck) على أنّ مخاطر اليوم – والّتي يسمّيها مخاطر الحداثة الجديدة – هي تهديدات لا نملك لها معنى: لا نراها، لا نسمعها ولا نحسّها، تماما كحالة الفيروس، التّلوّث أو الإشعاعات النّوويّة (Watel & Malclès, 2020).

ويوضّح أنّ هذه المخاطر الحديثة، غالبا ما تكون نتيجة للنّشاطات الإنتاجيّة، والّتي تُنتِج في الوقت نفسه سلعا ذات قيمة، ومخاطر صامتة غير مرئيّة؛ ممّا يعزّز إنتشارها، وأنّ هذا هو أحد متناقضات "مجتمع الخطر"؛ حيث أصبحت المجتمعات أكثر أمانا بفضل التّقدّم العلميّ والتّقنيّ؛ لأنّها إستطاعت السّيطرة على المخاطر، لكنّها في الوقت نفسه تولّد

مخاطر جديدة. وبالنّسبة لـ: "أولريخ بيك" أيضا: تتجاهل مجتمعاتنا هذه المخاطر الّتي يصعب إدراكها بشكل عامّ؛ لأنّها (المجتمعات) تُقدِّر – قبل كلّ شيء – الثّروة المادّيّة المُنْتَجَةَ على الفور.

إنّ ما يشجّع أيضا على اِنتشار هذه المخاطر هي العولمة الاِقتصاديّة، وكثافة التّجارة الدّوليّة، وتقدُّم وسائل النّقل، وينطبق الشّيء نفسه على الفيروس الّذي ينتشر بسرعة في العالم، مادامت السّلع والأشخاص يتحرّكون بشكل سريع أيضا.

الخاصّيّة الأخرى لمخاطر الحداثة يتحدّث عنها "إدغار موران" قائلا: "نحن في لحظة في تاريخ البشريّة؛ حيث نتقاسم جميعا المصير نفسه، مهما كانت القارّة أو الأمّة، يواجه الجميع الآن نفس المخاطر" (عبد الحيّ، 2020)، وهو ما أسماه "أولريخ بيك": "دمقرطة" الخطر؛ لأنّه يمسّ الجميع، على عكس بعض الأخطار الّتي تختلف اِجتماعيّا بشكل عامّ.

4– كورونا بين تمثّلات الخطر وممارَسات الوقاية

قبل الحديث عن كيفيّة تمثّل المجتمعات لأخطارها – الّتي تُحدِّد في الآن نفسه طريقة درئها والوقاية منها – سنحاول تعريف وباء كورونا كخطر يهدّد العالم منذ أكثر من سنتيْن، ثمّ نَخلُص لتمثّلاته وممارسات الوقاية منه.

4–1 تعريف وباء كورونا

يُعرَّف الوباء على أنّه زيادة مفاجِئة وسريعة في عدد حالات المرض، على نحو أعلى من المتوقَّع، في مجتمع ما، ويمتدّ على رقعة جغرافيّة أوسع، وتحدث الجائحة عندما ينتشر هذا الوباء في عدد من البلدان والقارّات، ويصيب أعدادا كبيرة من النّاس، ولقد ظهر هذا الوباء – الّذي تحوّل إلى جائحة فيروس كورونا المستجَدّ "كوفيد 19" – في ووهان الصّينيّة سنة 2019، واِنتشر إلى بقيّة دول العالم.

تُمثِّل فيروسات كورونا فصيلة كبيرة، تسبّب أمراضا متنوّعة: كالزّكام ونزلات البرد العاديّة، متلازمة كورونا الشّرق الأوسط التّنفسيّ «MERS-COV»، ومتلازمة الاِلتهاب الرّئويّ الحادّ الوخيم «SARS-COV»، ويُعَدُّ فيروس كورونا المستجَدّ «SARS-COV-2» سلالة جديدة، لم يسبق تحديدها وإصابة البشر بها من قبل، وقد أعلنت منظّمة الصّحّة العالميّة أنّ الاِسم الرّسميّ للمرض الّذي يسبّبه هذا الفيروس هو "كوفيد 19" (وناسي، 2021، الصفحات 356–357).

ويتركّب فيروس كورونا مخبريّا من غشاء بروتينيّ يغلِّف الحمض النّوويّ الخاصّ بالفيروس RNA، ويتكوّن – مثل بقيّة الفيروسات التّاجيّة – من أربعة أنواع من البروتينات، تكوِّن هيكل جسم الفيروس، منها بروتين (S)، الّذي يشكِّل النّتوءات الشّوكيّة الموجودة على سطحه، والّتي تمنحه شكله التاجيّ (براهمي، 2021، صفحة 16).

وتحدث العدوى بالفيروس نتيجة اِنتقاله من فرد إلى آخر، عند المخالطة اللّصيقة، وخاصّة بواسطة الرّذاذ، والقُطيْرات التّنفسيّة الّتي تصدر عن السّعال أو العطس أو التّحدّث، ويمكن أن تحدث كذلك عن طريق لمس الأسطح الملوّثة بالرّذاذ وقطرات تنفّس المصابين.

تبلغ قابليّة الإصابة ذروتها خلال الأيّام الأولى بعد ظهور الأعراض، كما أنّ الفيروس قد ينتقل دون أيّة علامات ظاهرة، وأكثر الأعراض شيوعا هي: الحمّى، السّعال، ضيق التّنفّس، الإعياء، فقدان حاسّتيْ الذّوق والشّمّ، ألم الحلق، الإسهال، الصّداع، اِحتقان الأنف واِلتهاب الملْتَحِمَةِ. لكن، ما تجدر الإشارة إليه هو أنّ أعراض الإصابة بالكوفيد تغيّرت بتحوُّره؛ حيث – وبمرور زمن الجائحة – ظهرت متحوّرات أخرى للفيروس، تغيّرت معها أعراض الإصابة به.

وبالنّسبة للمدّة الزّمنيّة بين التّعرّض للفيروس وبداية ظهور الأعراض، فقد تتراوح بين يومين وأربعة عشر يوما، وتشمل التّوصيات الوقائيّة: غسل اليديْن بالصّابون عديد المرّات خلال اليوم، اِرتداء الكِمَامَاتِ، المحافظة على المسافة الكافية بين الأفراد وعزل الأشخاص المصابين.

2-4 تمثّلات الخطر وممارَسات الوقاية من الوباء

تقول "جودلي دونيز" (Jodelet Denise) عن التّمثّلات أنّ: "هذا المفهوم يشتغل عند حافّتيْ السّيكولوجيا والسّوسيولوجيا" (Denise, 2003, p. 53)؛ بمعنى أنّنا في ملتقى الطّرق بين الفرديّ ذي المنشإ الاِجتماعيّ، والاِجتماعيّ الّذي يتمظهر في الفرديّ في شكل أفعال وممارسات اِجتماعيّة، الأمر الّذي صعَّب تطويقها معرفيّا.

وتُعتبَر التّمثّلات من المصطلحات التّقليديّة في الفلسفة وعلم النّفس، وتُستعمَل للدّلالة على ما نتصوّره ونتمثّله، وتُكَوِّنُ المحتوى المحسوس لفعل التّفكير، خاصّة لِاسترجاع إدراك سابق، ويُعرِّفها "جون سكوت" (John Scott) في مُؤَلَّفِهِ " المفاهيم الأساسيّة في علم الاِجتماع" بقوله: "هي مجموع الظّواهر الفكريّة المشتَرَكة، الّتي يُنظِّم من خلالها الناس حياتهم، وتُشكِّل مُكوِّنات جوهريّة في أيّة ثقافة". وقد طُرِحَ هذا المصطلح لأوّل مرّة من طرف "دوركايم"، للإشارة إلى واحدة من الحقائق الاِجتماعيّة الّتي يُعنى بها علم الاِجتماع، وهي "مجموع الأفكار والقيم، والرّموز والتّوقّعات، الّتي تُشكِّل طرق التّفكير والشّعور، الّتي تتّسم بالعموميّة والدّيمومة، ضمن مجتمع ما، أو مجموعة اِجتماعيّة، والّتي تتشاركها بِاعتبارها خاصّيّة اِجتماعيّة لها" (سكوت، 2009، صفحة 123).

وانطلاقا من كون الوعي الصّحّيّ عمليّة إدراك الفرد للظّروف الصّحّيّة المحيطة، وتكوين اِتجاه عقليّ نحو الصّحّة العامّة للمجتمع، يُمكِّنه من حماية نفسه وأسرته ومجتمعه من مختلف المخاطر الصّحّيّة والبيئيّة ("وباء كورونا" بين نجاعة العلم ووعي المجتمع: تأمّل سوسيولوجيّ، 2020)، فاِنتشار هذا الوعي أو اِرتفاع درجاته، لا يمكن ربطه فقط بنشر

المضامين التّحسيسيّة للوسائط الإعلاميّة؛ لأنّ الإمتثال للتّعليمات الوقائيّة قد يصطدم أحيانا بجملة من التّحدّيات الثّقافيّة والأنثروبولوجيّة، كالإحتكام إلى مرجعيّة ماضويّة، تُشكِّك في العلم والطّبّ الحديث.

وتُعرّج إشكاليّة الوقاية من الأخطار الصّحّيّة على مقاربتيْن: المقاربة الوبائيّة والبيوطبّيّة، والّتي تتناول الأوبئة من منظور بيولوجيّ، يحاول البحث عن الأسباب الكامنة وراء ظهور وإنتشار فيروس معيّن، ورصد تطوّراته، وكذلك طريقة إنتقال العدوى، بينما تنطلق المقاربة السّوسيولوجية من إشكالات ذات طبيعة إجتماعيّة، يمكن إختصارها في مفهوم الوقاية ومفهوم الخطر.

تنطلق مقاربة العلوم الطّبّيّة وعلوم الأوبئة من سؤال: ما هي المخاطر الصّحّيّة للفيروس وطرق الوقاية منه؟ وتلجأ في غالب الأحيان إلى وسائل الإعلام، سواء التّقليديّة أو التّكنولوجيّة، مُعْتَبِرَةً أنّ جميع الأفراد لهم مستوى فهم ووعي قادر على إستيعاب الخطاب الوقائيّ (بوغرازني و أوتشرف، 2020)، كما إعتمدت على خطاب فرديّ، تمثَّل في غسل اليديْن، طرق العطس، طرق التّعقيم، وإعتماد النّظافة اليوميّة، وهي مهمّة، لكنّها تظهر وكأنّها سلوكات مرتبطة بالفرد وحده، في حين أنّ هذا الوباء خطر على الجماعة والمجتمع ككلّ، والتّقليل من هذا المعطى كانت نتائجه واضحة، من خلال ما ظهر من بؤر لإنتشار الفيروس، عاكسةً عدم وعي فئات واسعة من المجتمع بحقيقة خطورة هذا الوباء وسرعة إنتشاره.

وتتناول السّوسيولوجيا التّمثّلات الإجتماعيّة للجماعات، وتصوّرها للأوبئة والأمراض؛ بهدف فهم الذّهنيّات السّائدة، ومن ثمّ تحديد معالم الوقاية المناسبة، فلا يمكن تصوّر وقاية جيّدة من هذا الفيروس دون تفكيك الأنساق الثّقافيّة، والتّصوّرات الّتي يحملها الأفراد حول هذا الفيروس (بوغرازني و أوتشرف، 2020)، وهنا يُطْرَحُ السّؤال: ما طبيعة تمثّلات الجائحة لدى أغلبيّة أفراد المجتمع؟ هل هي تمثّلات طبيعيّة (كالزّكام الموسميّ) أو دينيّة (بلاء من عند الله، عقاب إلهيّ، وهل الوقاية أو الشّفاء بيد الله؟) أو علميّة؟ ويمكن البحث أيضا في: كيف تتأثّر وتؤثّر الجماعة في تمثّلات الوباء؟ هل للجماعة دور في الوقاية من هذا الفيروس؟

كما يمكن الإنطلاق أيضا من فرضيّة هامّة، مفادها أنّ التّعامل الوقائيّ في مجتمعنا مع جائحة كورونا قد يتأثّر بالبناء الإجتماعيّ والثّقافيّ للمخاطر المرتبطة بالفيروسات السّابقة (الأنفلونزا الموسميّة أو أنفلونزا الخنازير ...) (بوغرازني و أوتشرف، 2020)؛ لأنّ التّمثّلات الإجتماعيّة تستمدّ مادّتها الخام أحيانا من الذّاكرة الجماعيّة، كما أنّ إستيعابنا لطرق الوقاية ومجابهة الفيروس قد يتباين من فئة لأخرى؛ فالبعض قد يكون فهمه ومعرفته بالجائحة علميّا، بينما قد يكون التّأويل الدّينيّ والثّقافيّ الشّعبيّ لدى فئة عريضة من أفراد المجتمع هو السّائد في تعاملهم مع هذه الجائحة.

وإذا كان النّموذج البيولوجيّ يركّز على الجانب البيولوجيّ للسّلوكات – رغم وجودها في سياق إجتماعيّ أو ثقافيّ – فإنّ الدّراسات السّوسيولوجيّة تحاول أن توضّح أنّ مواقف الخطر تحمل معنى لدى الأفراد في إرتباطها بالمعتقدات

والطّقوس، فالأشخاص العاديّون – الّذين لا يتّخذون القرارات الصّحيحة حسب الخبراء – ليسوا بالضّرورة غير مسؤولين أو غير عقلانيّين، فغالبا ما يصنعون تمثّلات مبنيّة على تمثّلات سابقة، وفيما يتعلّق بكورونا – وفي غياب اليقين العلميّ – يحاول الأفراد الإعتماد على ما سبق، من خلال التّساؤل مثلا إذا ما كان أكثر أو أقلّ خطورة، أكثر أو أقلّ عدوى من الأنفلونزا، وبذلك، قد تكون مقاومتهم للأوامر الصّحّيّة خيارا مدروسا ومعقولا تماما من وجهة نظرهم.

ما يجب فهمه هو أنّ هؤلاء يواجهون أخطارا متنافسة، وأنّ هذه الأخيرة هي الّتي تسمح لنا بفهم المواقف المتَّخَذَةِ في مواجهة بعض الأخطار الصّحّيّة، ففي حالة فيروس "كورونا"، يواجه بعض الأفراد أخطارا متنافسة؛ حيث يواجهون خطر الفيروس بعدم إحترامهم لإجراءات الحجر؛ لأنّ أخطارا آنيّة أثقل، كفقدان العمل، فقدان بعض الموارد، الخوف من فشل بعض المشاريع وغيرها (Watel & Malclès, 2020).

وتؤكّد الباحثة البريطانيّة في الأنثروبولوجيا "ماري دوغلاس" أهمّيّة الموارد في التّمايز الإجتماعيّ في التّعرّض للخطر، كما تُميّز بين الخطر المتاح (Le danger subit) والخطر المختار (Le danger choisit)، فحسب رأيها: يمكن للأثرياء إختيار ما يتعرّضون له، بينما لا يختار الفقراء العيش في مناطق التّلوّث والإجرام، فهم على العموم ملزمون بتلقّي الأخطار (Watel & Malclès, 2020).

ولقد أوضحت الكثير من الأعمال السّوسيولوجيّة – حول ممارسات التّدخين للفئات الهشّة، ومقاومتها للسّياسات الوقائيّة – أنّ الفهم الجيّد لهذه المواقف لا يكون إلا بإعتبارها ممارسة إجتماعيّة، لا مرضا أو إنحرافا؛ ممارسة تحمل معنى بالنّسبة لأفراد يعيشون حالة تهميش؛ فإذا كان هؤلاء أقلّ إستجابة لمحاربة التّدخين، فليس لأنّهم يجهلون خطره على صحّتهم، أو لعدم فهمهم للرّسائل الوقائيّة، لكن بسبب المسافة بينهم وبين الثّقافة المسيطِرة، وكذلك لحذرهم من العلم ومن السّياسات العامّة.

كما ثبت وجود علاقة بين الأزمات والكوارث الطّبيعيّة والأوبئة، وبين تبنّي كلّ مجتمع لأنماط إجتماعيّة وثقافيّة للمجابهة، تختلف حسب خصوصيّة كلّ كيان إجتماعيّ، وسُمِّيَتْ جملة هذه السّلوكات، الإتّجاهات، التّدابير، التّصرّفات والإحتياطات بـ: المناعة الإجتماعيّة المكتسَبة؛ نظرا لسلسلة من تراكمات التّجارب والخبرات عبر حقبات تاريخيّة طويلة، تحوّلت – عبر التّاريخ الطّويل للمجتمعات المعرَّضة بإستمرار لمثل هذه الأزمات – إلى مناعة إجتماعيّة مُكتسَبة، ترسم الشّخصيّة الإجتماعيّة لكلّ مجتمع، وتُميّز نظامه الإجتماعيّ بخصوصيّة ثقافيّة وإجتماعيّة، تُعتبَر بمثابة بصمة، تطبع هذه المجتمعات بمميّزات خاصّة لوحدتها الإجتماعيّة، ترسم دفاعاتها، تُنمّط سلوكاتها، تؤسّس لممارساتها الإجتماعيّة، حتّى صارت تأخذ طابع المقدَّس في المخيال الجمعيّ لكلّ مجتمع؛ لإرتباط آمن بالمحيط الخارجيّ، بعيدا عن كلّ مخاطر خارجيّة (بوشارب، 2021، صفحة 98).

خاتمة

في الأخير، يمكن القول أنّ التّعامل الوقائيّ مع الفيروس في مجتمعاتنا قد يتأثّر بالبناء الاِجتماعيّ والثّقافيّ للخطر المرتبط بالفيروسات السّابقة؛ لأنّ التّمثّلات الاِجتماعيّة تستمدّ مادّتها الخام أحيانا من الذّاكرة الجماعيّة، كما أنّ اِستيعابنا لطرق الوقاية ومجابهة الفيروس قد يتباين من فئة لأخرى، فالبعض منّا قد يكون فهمه ومعرفته بالفيروس علميّا، بينما قد يكون التّأويل الدّينيّ والثّقافيّ الشّعبيّ لدى فئة عريضة من أفراد مجتمعنا هو السّائد في تعاملهم مع الفيروس.

ولذلك، فدراسة التّمثّلات الاِجتماعيّة للجماعات وتصوّرها للأوبئة والأمراض، يسمح بفهم الذّهنيّات السّائدة، ومن ثمّ تحديد معالم الوقاية المناسبة، فلا يمكن تصوّر وقاية جيّدة من هذا الفيروس دون تفكيك الأنساق الثّقافيّة، وما يحمله الأفراد حول الفيروس.

كذلك، يتطلّب منّا مجتمع المخاطر تدابير جديدة، تسمح بتنمية كفاءات الإنسان على مستوى إدراك الخطر وتمثّله، وهذا يتطلّب التّربية على الخطر في مدارسنا، وسياسات عموميّة تُدْرِجُ الخطر على مستوى التّدابير والمشاريع المعتمَدة في مساكننا ومدارسنا، في فضاءاتنا العموميّة ومدننا.

قائمة المراجع:

المراجع العربيّة:

. الحسيني، عامر بن محمّد، (2020)، إدارة المخاطر في مواجهة "COVID-19":

https://www.aleqt.com/2020/03/25/article_1789196.html (Consulté le: 08/07/2021).

. براهمي، عبد الكريم، (2021)، "جائحة كورونا في تونس: التّمثّلات الإجتماعيّة والتّداوي بالغذاء – سكّان الأرياف أنموذجا". مجلّة "أنثروبولوجيا"، مجلّد 7 (ع 2)، ص. ص 11–31.

. بودون، ريمون، (2010)، أبحاث في النّظريّة العامّة في العقلانيّة: العمل الإجتماعيّ والحسّ المشترك، ط1. (جورج سليمان، المترجمون) بيروت: المنظّمة العربيّة للتّرجمة.

. بوشارب، فوزيّة، (2021)، "مفهوم المناعة الإجتماعيّة المكتسَبة من جرّاء الأزمات والكوارث الطّبيعيّة والأوبئة: دراسة حالة وباء كورونا". مجلّة دراسات نفسيّة وتربويّة، مجلّد 14 (ع 2)، ص. ص. 97–110.

. بوغرازني، عبد الله، أوتشرف، علي، (2020)، السّوسيولوجيّ "عبابو": إعتماد المقاربة الفرديّة في التّعامل مع وباء كورونا تبقى مقاربة قاصرة:

https://dabapress.com/52310/ (Consulté le: 31/08/2021).

. جيدنز، أنتوني، (2010)، الطّريق الثّالث: تجديد الدّيمقراطيّة الإجتماعيّة، (أحمد زايد، و محمّد محيي الدّين، المترجمون) القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.

. خلوفي، سفيان، شريط، كمال، (2020)، "إدارة المخاطر الوبائيّة: جائحة فيروس كورونا "كوفيد–19" (تجربة الصّين أم جمهوريّة كوريا؟)". Revue algérienne d'Economie et Gestion، جامعة "محمّد بن أحمد" – وهران 2، مجلّد 14 (ع 2)، ص. ص 565–590.

. سكوت، جون، (2009)، علم الإجتماع: المفاهيم الأساسيّة، ط1. (محمّد عثمان، المترجمون) بيروت: الشّبكة العربيّة للأبحاث والنّشر.

. عبد الحيّ، وليد، (2020)، مستقبل المشهد الدّوليّ بعد الكورونا (كوفيد 19):

https://www.alzaytouna.net/2020/05/02/%D9%85%D9%82%D8%A7%D9%84-%D9%85%D8%B3%D8%AA%D9%82%D8%A8%D9%84-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B4%D9%87%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%AF%D9%88%D9%84%D9%8A-%D8%A8%D8%B9%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D9%83%D9%88%D8%B1%D9%88%D9%86/#.YgWChZaZPIV (Consulté le: 15/01/2022).

. موسى، آمال، (2020)، "كورونا" والحداثة:

https://aawsat.com/home/article/2189196/%D8%AF-%D8%A2%D9%85%D8%A7%D9%84-%D9%85%D9%88%D8%B3%D9%89/%C2%AB%D9%83%D9%88%D8%B1%D9%88%D9%86%D8%A7%C2%BB-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%AD%D8%AF%D8%A7%D8%AB%D8%A9 (Consulté le: 20/11/2021).

. وناسي، سهام، (2021)، "المدينة والأوبئة: وباء كورونا نموذجا". مجلّة "المقدّمة" للدّراسات الإنسانيّة والإجتماعيّة، جامعة "الحاجّ لخضر" – باتنة 1، مجلّد 6 (ع 2)، ص. ص 355–368.

. (2020)، "وباء كورونا" بين نجاعة العلم ووعي المجتمع: تأمّل سوسيولوجيّ:

https://www.annasronline.com/index.php/2014-08-09-10-34-08/146628-2020-04-04-10-40-02 (Consulté le: 11/12/2021).

المراجع الأجنبيّة:

. Buendia, Mercedes Pardo, (2002), "sociologie et risque: nouveaux éclairages sur les facteurs sociaux et la participation publique", MANA: Revue de sociologie et d'anthropologie, vol 10 -11, p. p. 285-305.

. Delannoi, Gil, (1995), "Anthony Giddens, les conséquences de la modernité", Revue française de science politique, vol 45 (n°5), p. p. 882-885.

. Denise, Jodelet, (2003), "Les représentations sociales", Sociologie d'aujourd'hui, p. p. 45-78.

. Jacquemain, Marc, (2012), Peut on sauver la modernité radicale d'Anthony Giddens?, Revue belge d'analyse et de débat: https://www.revuepolitique.be/peut-on-sauver-la-modernite-radicale-danthony-giddens/ (consulté le: 21/12/2021).

. Taneja, Sonia, Pryor, Mildred Golden, Sewell, Scott, & Recuero, Aura Maria, (2014), "Strategic crisis management: A basis for renewal and crisis prevention", Journal of management policy and practice, vol 15 (n°1), p. p. 78-85.

. Watel, Patrick Peretti, & Malclès, Anne Châteauneuf, (2020). Sociologie du risque et crises sanitaires: un éclairage sur la pandémie du Corona virus: http://ses.ens-lyon.fr/articles/sociologie-du-risque-et-crises-sanitaires-un-eclairage-sur-la-pandemie-du-coronavirus (consulté le: 04/02/2022).